فلسطين إلى أين؟

علاء حليحل*

عودة إلى الدور التنويري:
الثقافة الفلسطينية في مواجهة الفاشية الإسرائيلية

عند تراجع قوة "التابع" العسكرية والسياسية والاقتصادية في مقابل المهيمِن، تبرز الثقافة بمختلف روافدها كمحور مقاومة ونضال أساسي ـ وربما الأبرز في فترات معينة ـ في وجه الهيمنة الكولونيالية، أو تلك التي تتّسم بسمات كولونيالية جزئية، وخصوصاً في ظل غياب أو تراجع المحاور الأُخرى البارزة، كالكفاح المسلح أو الزخم الشعبي أو العمل السياسي المنظم. وللأسف، فإن الوضع الفلسطيني القائم يتّسم بالضعف البائن في هذه المحاور الثلاثة الأخيرة، الأمر الذي يفسح المجال الأكبر، منذ انتهاء الانتفاضة الثانية والانقسام الفلسطيني الداخلي، أمام العمل الثقافي الذي يشمل بين طياته العملية الإبداعية والكتابة عنها واستهلاكها، وهو ما يُنتج حالة ثقافية وحياتية تتسم بالحراك والتساؤلات والحوار وإنتاج المعرفة ونقد الواقع. ونشير بداية إلى أن الفعل الثقافي لا يمكن أن يستبدل الروافد الثلاثة الأُخرى، بل هو مكمل لها من دون أن ينافسها، ومن دون حاجة إلى المفاضلة الأخلاقية أو العملية، على شاكلة مقولات "هل ستحررون الوطن بالمسرح؟" أو على شاكلة "الكفاح المسلح انتهت صلاحيته أو أثبت فشله."

لا يمكن للثقافة الفلسطينية أن تواجه الفاشية الإسرائيلية من دون إدراك عدة معطيات أساسية تخص الوجود الفلسطيني وعلاقته بالمؤسسة الإسرائيلية في فلسطين التاريخية؛ فالحضور الإسرائيلي يختلف في معطياته وممارساته بين الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطين ٤٨، ولا يتوقف هذا الاختلاف عند الممارسات فقط، بل ينسحب أيضاً على الغايات والأهداف من وراء هذا الحضور. وبإيجاز سريع سأشير إلى فارق أساسي كبير يتجسد بما تريده إسرائيل من السيطرة على هذه المساحات الثلاث.

تسعى إسرائيل ضمن سيطرتها الفعلية والخانقة على قطاع غزة لسلخ القطاع عن

---

* روائي وقاص فلسطيني.

سياقه الفلسطيني التاريخي، وتسهيل استثنائه ضمن أي اتفاقية سلام مستقبلية مع سلطة رام الله، وتعمل في سبيل ذلك على تعميق الانقسام الداخلي القائم، وعلى تحويل سلطة "حماس" إلى حارس للجدار الأمني المحيط بالقطاع ضمن اتفاقيات هدنة متكررة، وبالتالي نفي أي دور بنّاء لها مستقبلاً. أمّا فيما يتعلق بالضفة الغربية، فإن إسرائيل ـ في نظري ـ تحاول جاهدة الحفاظ على الوضع القائم في منطقتَي "أ" و"ب"، وتسعى بكل قوة لرسم معالم واقع سيؤدي في النهاية إلى ضمّ مناطق "ج" إلى دولة إسرائيل. وفي سبيل ذلك، فإن إسرائيل تتحكم في لعبة "القط والفأر" مع السلطة الفلسطينية، في كرّ وفرّ كبيرين ويحملان كثيراً من التناقضات البنيوية التي تبدأ ولا تنتهي في التناقض القائم بين التنسيق الأمني الكامل من جهة، والتحريض الشرس على السلطة ورئيسها من جهة أُخرى، من دون أن يكسر أي طرف "قواعد اللعبة".

أمّا في فلسطين ٤٨ فإن المؤسسة الإسرائيلية السياسية تريد أهدافاً تناقض صراحة وعلناً ما تريده الأجهزة الأمنية، وعلى رأسها جهاز الأمن العام (الشباك): السياسيون يريدون تهميش العرب الفلسطينيين مواطني الدولة وحصر وجودهم السياسي والجغرافي ضمن كانتونات سياسية (غير جغرافية بالضرورة) منعزلة عن يهودية الدولة بمعناها العام، ومكملة للاقتصاد الإسرائيلي، بينما يرغب جهاز الأمن العام (ويا للمفارقة!) في المساواة المدنية والتشجيع على الاندماج كأداة وقائية هدفها خفض مستوى "التطرف" لدى هذه الأقلية.

من هنا، فإن محاولة الإشارة إلى الدور المنوط بالثقافة الفلسطينية ضمن هذا الواقع المركب والغريب، تبدو محاولة عبثية، وهي بالتأكيد عصية على الحصر والتوسع في مثل هذه العجالة. ولهذا، فإنني سأضم الضفة وغزة في إطار واحد (على الرغم من الاختلافات) من منطلق وجود احتلال عسكري مباشر مع تجريد من الحقوق المدنية، في مقابل فلسطين ٤٨ كوضعية مواطنة مع حقوق مدنية واسعة وأساسية مثل الانتخاب والترشح. الحالة الأولى تحمل مميزات استعمارية "كلاسيكية"، بينما تحمل الحالة الثانية مميزات ما بعد كولونيالية. ولذلك، فإن تحديد مهمات الثقافة الفلسطينية في وجه إسرائيل وآلياتها يطرح السؤال المركزي والمهم: ما هي أهدافنا كفلسطينيين موزعين اليوم على ثلاث مناطق (في فلسطين التاريخية)، إلى جانب الشتات في مخيمات اللجوء في الدول العربية ودول اللجوء الأجنبية؟

يمكن لأي مثقف أو مبدع أن يقول ـ وبحقّ ـ إن الثقافة ليست ذراعاً للسياسة، وإنما هي كائن مستقل له ارتباطات عضوية بسائر روافد وجود الشعب، لكنها ليست تابعاً، وبالتالي فإن أجنداتها تشمل القيم العليا التي لا علاقة لها بالاصطفافات الداخلية أو الخارجية المتغيرة؛ قيم مثل كرامة الإنسان والحريات المدنية والفكرية وحريات المعتقد والحرية الفنية والإبداعية. وإذا كان الأمر كذلك ـ وأنا أوافق على هذا بالتأكيد ـ فهل على الثقافة الفلسطينية اليوم أن تؤدي هذا الدور على جميع الجبهات، أي في مواجهة إسرائيل، وأيضاً في مواجهة القمع الفلسطيني الداخلي، سواء أكان على خلفية الانقسامات السياسية العسكرية الداخلية خاصة، أم على مستوى المبنى المجتمعي المجحف بحق النساء والأطفال والمختلفين عامة؟ هذا سؤال لا مناص منه، لكننا سنحاول حصر الحديث في الشق الأول

منه، أي في مواجهة الفاشية الإسرائيلية المتصاعدة.

إذاً، الأدوات المتاحة للمبدعين وأهل الثقافة في غزة والضفة ليست شبيهة بأي حال وعلى جميع الصعد، بتلك المتاحة للفلسطينيين مواطني إسرائيل، كما أن ثمة اختلافاً كبيراً في هذا السياق، هو العلاقة العضوية الناشئة بين فلسطينيي ٤٨ والثقافة الإسرائيلية، والتي تبدأ باللغة العبرية المهيمنة التي يتقنها فلسطينيو ٤٨، ولا تتوقف عند معاهد التدريس العليا والكليات والعمل مع جهات ثقافية إسرائيلية والتمول بأموال وزارة الثقافة وغيرها. هذه الاختلافات هي سيف ذو حدّين: السلبي فيها هو توسيع الهوة القائمة بين مكونات الثقافة الفلسطينية من الناحية الجغرافية، بينما يبرز الجانب الإيجابي فيها في الاستفادة من المعرفة الواسعة الكامنة في الثقافة الإسرائيلية التي أتت مع المهاجرين اليهود من أوروبا عند النكبة وقبلها، والتي يمكن لأي طالب جامعي في الفنون أو الآداب أو الدراما أن يستفيد منها بحكم العلاقة المباشرة والعمل المشترك. لذلك تتسم وضعية فلسطينيي ٤٨ مع إسرائيل بكونها وضعية ما بعد كولونيالية بجدارة، وهي تتجاوز المفهوم الاستعماري المتداول الوارد في كتاب "الاستشراق" الذي يمكن إيجازه بوجود علاقة صراع وتضاد بين الطرفين، مثلما أشار إلى ذلك هومي بابا، المفكر الهندي ـ الأميركي، في تعامله مع التقاء المستعمِر والمستعمَر كلقاء هجين، يؤثر الطرفان فيه بعضهما في بعض.

وتنعكس السيطرة الكولونيالية المباشرة في الضفة الغربية على المستوى العسكري والاقتصادي والثقافي والتقنيات المعاصرة والموارد الطبيعية، وهو ما يسميه البعض "احتلال 3D" (احتلال ثلاثي الأبعاد): سيطرة على الأرض وما فوقها (التقنيات الخليوية والإنترنت والبثّ)، وما تحتها (المياه والثروات الطبيعية).

وتشير الأدبيات البحثية إلى عدة مراحل تمر على "التابع" في علاقته مع القوة المهيمنة، يمكن ذكر ثلاث منها:

أ ـ تشكّل وعي محلي بشأن الدونية المجتمعية والنفسانية والثقافية الناشئة تحت وضعية هيمنة؛

ب ـ النضال من أجل الاستقلالية في المجال الإثني والثقافي والسياسي؛

ج ـ الوعي المتزايد بالتداخل الثقافي والوضعية الهجينة.

من هذه الأمور يمكن اشتقاق عدة ملامح للدور المنوط بالثقافة في السياق الفلسطيني، وهي اجتهادات خاصة تقوم على التأمل والتعلم والاستشراف:

١ـ الحرب على الرواية، والحق في الذاكرة؛

٢ـ بناء ذهنية تنظر إلى المستقبل ولا تكتفي بنبش الماضي؛

٣ـ إحياء الفردوس المفقود كحالة ثقافية مستمرة؛

٤ـ محاسبة الذات ونقدها؛

٥ـ طرح الأسئلة كلها؛

٦ـ الحفاظ على المشروع الجمالي وتطويره، كون الثقافة الفلسطينية جزءاً لا يتجزأ من الثقافات الكونية، فالمساهمة الجمالية أمر بالغ الأهمية لبناء أجيال متغيرة ومتمكنة؛

٧ـ إنهاء الذهنية الاستعمارية لدى الأصلانيين.

هذه ليست جميع الأهداف التي تسعى الثقافة الفلسطينية لتحقيقها، لكنها ما يهمني في

سياق السؤال الكبير: كيف تواجه الثقافة الفلسطينية الفاشية الإسرائيلية المتنامية باطراد؟ هذا ليس سؤالاً هيناً، وليس بالضرورة من منطلق انعدام وجود الأدوات أو عدم تكافئها، وإنما لصعوبة كبيرة نواجهها اليوم في تحديد هوية الثقافة الفلسطينية، وفي تحديد أولويات المبدع والمثقف ومروّج الثقافة، وفق وجوده الجغرافي ضمن التقسيمات الكبيرة: غزة والضفة والداخل والشتات.

وإذا كان الانتماء الإثني / القومي بمفهومه المعاصر يُعرَّف بأنه مزيج من الصفات تخص مجموعة معينة من الناس: القيم المشتركة والمعتقدات والأذواق والعادات والمسلكيات والتجارب والذكريات والانتماءات، فإن من أهم وظائف الثقافة المعاصرة ومهماتها تلك التي تتجسد بالبحث في هذه العناصر التي تكوّن الذات الجمعية. ولا يمكن فعل ذلك من دون ثقافة تنشغل بالذات الفردية كأساس لهذه المكونات. ربما تبدو هذه المهمة ترفاً في سياقنا الفلسطيني الراهن، إلاّ إن العودة إلى هذا السؤال تعني بالضرورة الانسلاخ عن مكانة التابع الذي يعرّف نفسه كمرآة للمهيمن، وآنذاك يمكن للثقافة الفلسطينية أن تقوم بدورها المنوط بها من دون علاقة باستعار الفاشية الإسرائيلية أم لا.

لكننا لو بقينا في هذه الخانة، خانة مناهضة الفاشية الإسرائيلية، فإن المهمات السبع التي ذُكرت أعلاه كفيلة بأن تجعل الثقافة الفلسطينية تأخذ دورها الآني، والذي يتلخص في رأيي بأمرين أساسيين: إبراز التفوق الأخلاقي والخصوصية الثقافية في مقابل المد الفاشي، والعمل على صوغ مركّبات هوية الفلسطيني، كمجموع وكأفراد.

في مسرحية "إذ قال يوسف" (نص وإخراج نزار زعبي) تُصاغ روايتنا عن النكبة في مبنى درامي محكم يطرح كثيراً من الأسئلة التاريخية والعسكرية والسياسية، إلاّ إن المسرحية لا تغفل طرح الأسئلة الفلسطينية الداخلية التي تتعلق بثنائية البطولة / العمالة وثنائية الشجاعة / الخوف. من هذا الباب، تبدو هذه المسرحية نادرة في المشهد الثقافي لدينا. أمّا إيليا سليمان فيطرح في فيلمه "يد إلهية" قراءة مغايرة للواقع الفلسطيني الراهن مروراً بالاحتلال والعسكرة والعلاقات الفلسطينية الداخلية، بينما يتجرأ ويتناول النكبة من منظور مختلف في فيلمه "الزمن الباقي"، كاللحظات الكوميدية التي تخللت سرد قصة النكبة، وحالة الانكسار التي يعيشها بطل الفيلم بعد النكبة وسقوط الناصرة، وهي حالة مناقضة تماماً لمفهوم البطل الفلسطيني ومثاليات الصمود. وقد سبقهما إلى ذلك غسان كنفاني في روايته "عائد إلى حيفا"، التي طرحت بألم موضوع "الهجيج" ونسيان الطفل وضياع حيفا، وذلك من خلال استحضار اليهودي كإنسان له مقوماته البشرية على غرار الفلسطيني.

من هنا، يمكن الخلوص إلى أن الدور الذي يمكن للثقافة الفلسطينية أن تؤديه اليوم هو دور تنويري على جميع الصعد: في مواجهة فاشية الآخر، وفي مواجهة الرجعية الفلسطينية (والعربية) المتمثلة اليوم، أكثر من أي شيء، في التدين المتشدد وغياب التسامح المجتمعي والفكري وحرية النقد. لكن كيف يمكن لأي ثقافة أو مجتمع أن يقاوم فاشية الآخر وهو مكبل التفكير والحرية في بيته؟

وطبعاً، هذا التساؤل ليس مقارنة ولا هو مفاضلة، فالتاريخ الفلسطيني حافل بالبطولات والنماذج الاجتماعية الرائعة في أثناء الانتفاضة الأولى وقبلها، في فلسطين التاريخية وفي الشتات، وإنما هو تساؤل يجب أن يعيدنا إلى نقطة الانطلاق الأساسية التي جعلت

من الثقافة الفلسطينية فيما مضى مرتكزاً أساسياً لا غنى عنه: الأدب والصحافة والمسرح والسينما قبل النكبة، والفعل الثقافي والإبداعي المقاوم بعد النكبة، والذي ساهم أكثر من أي شيء آخر في الحفاظ على الهوية الفلسطينية، وعلى الهوية الفردية والفكرية التي تسمح لنا اليوم بطرح مثل هذا التساؤل. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

سيرة جابي برامكي وتجربته في جامعة بير زيت

(١٩٢٩ ـ ٢٠١٢)

عبد الرحيم الشيخ

٣٧٥ صفحة ١٢ دولاراً

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

طريق الكفاح في فلسطين والمشرق العربي

مذكرات القائد الشيوعي محمود الأطرش المغربي

إعداد وتحرير: ماهر الشريف

٣٧٢ صفحة ١٢ دولاراً